﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾

[الأنبياء:47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ التَّخويفِ من عـذابِ يومِ القيامةِ يُخبرُ سبحانه عن عدلِه الّذي لا يفارقُ قدرتَه

لمّا بيّن القرآن ما افْتُتِحَتِ السّورة به من اقترابِ السّاعةِ بالقدرةِ على الحسابِ واقتضاءِ الحكمة له، وأنّ كلَّ أحَدٍ مَيّتٌ ولا يستطيع شيئًا منَ الدَّفعِ عن نَفْسِه فضلاً عن غيره، وأنّ الآياتِ خُتِمَتْ بإقرارِ الظّالمِ بظلمه، وكان الجَورُ عادةَ كثيرٍ منَ النّاس عندَ القدرةِ، بَيّنَ أنّه سبحانه بخلافِ ذلك؛ فذكر بعضَ ما يفعل من العدل في ساعة الحسابِ في الآخرة، فقال عاطفًا على قولِه ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ﴾ [الأنبياء: 40] قولَه ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾[1].

بعد ذِكْرِ الحالِ في الدّنيا أعْقَبَهُ بـذِكْـرِ المـآلِ في الآخرةِ

لَمّا ذَكَرَ حالهم في الدُّنيا إذا أُصيبوا بشيء - على رأي مَنْ فسّر نفحةَ العذاب الّتي مسّتهم بعذابِ الدُّنيا من الجوعِ الّذي بالكافرين بمكّة - عَقّبَ ذلك بما يكون في الآخرة الّتي هي مقرّ الثّواب والعقاب مِنْ وضْعِ الموازين، فأخبرَ تعالى عن عدله، وأسند ذلك إلى نفسه بنونِ العَظَمة فقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَضَعُ﴾: (وضع) أصلٌ يدلُّ على الخفضِ للشيءِ وحَطِّه، ووُضِعَ في تجارته: خَسِرَ[3]، ووَضَعَتْ المرأةُ: ولدَتْ، والتَّواضعُ: التّذلّل، والمَوْضِعُ: المكان، والمَوْضِعُ أيضًا: مصدرُ قولِكَ وضَعْتُ الشّيءَ من

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 7/ 435، وابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 4/ 85.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وضع).

يَدي وضْعًا[1]، ووضَعَ الشَّيءَ في المَكانِ: أثْبَتَه فيهِ، ووضَعَ الدَّيْنَ عنه وضْعًا: أسقطَهُ عنه، والوَضْعُ ضدّ الرَّفع[2]، والوضْعُ أعَمُّ من الحطّ، ويُعبَّر بالوضْع عن الإيجادِ والخلق[3]، ومعنى ﴿وَنَضَعُ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللّغويّ، وهو حطُّ الشّيء ونَصْبُهُ في مكان، أي: ونُحضِرُ الموازينَ العادلة، ونقيمُها[4].

2) ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾: (وزن) أصْلٌ يَدُلُّ على تَعْديلٍ واسْتِقامَةٍ، والزِّنَةُ قَدْرُ وزْنِ الشَّيْءِ[5]، والوزْنُ: المثقالُ، والوزْنُ: التَّقْديرُ، والوزْنُ: ثَقْلُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ مثلِه، والميزانُ معروف، وهو الآلَةُ الَّتي تُوزَنُ بِها الأشياء، وقيل: الميزانُ: العَدْل، والميزانُ: الكِتابُ الَّذي فيه أعمال الخَلْق، وجائزٌ أنْ يُقالَ للميزانِ الواحِدِ بأوْزانِه مَوازينُ؛ ومِنْه قوْلُه تَعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ يُريدُ الميزانَ[6]، واختلف العلماء في المراد بالموازين هنا: فذهب الجمهور إلى أنّها حقيقيَّةٌ توزنُ بها صحائفُ الأعمال، وقيل: وضعُ الموازين تمثيلٌ لإرْصادِ الحسابِ السَّويِّ والجزاءِ على حسبِ الأعمال بالعدل والنَّصَفَةِ، من غير أنْ يُظلَمَ مثقالَ ذَرَّةٍ[7].

3) ﴿ٱلْقِسْطَ﴾: (قسط) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على معنيينِ مُتَضادّينِ والبناءُ واحدٌ، يُقال: أقْسَطَ يُقْسِطُ فهو مُقْسِطٌ إذا عدَل، وقَسَطَ يَقْسِطُ فهو قاسِطٌ إذا جارَ، فالقِسْطُ بالكسر: العَدْلُ، والمُقْسِطُ: في أسماء اللّه تعالى هو العادل[8]، والإقْساطُ: العدلُ في القسمة والحكم، والقِسْطُ: الحِصّة والنَّصيب، وتقَسَّطوا بينهم الشّيء: اقتسموه بالتّسويةِ والعَدْل[9]، والقِسْطُ أيضًا: الميزانُ، سُمّي به؛ لأنّه يعدلُ هذا الجانبُ منه بهذا، ومن ذلك جاء الإقساطُ: العدلُ في القسمة، كأنّما هو إعطاءُ كلٍّ قِسْطَه[10]، ومعنى ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ في الآية: العدل[11].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (وضع).
(2) الزَّبِيدِيّ، تاج العروس، وابن منظور، لسان العرب: (وضع).
(3) الرّاغب، المفردات: (وضع).
(4) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/ 217، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 81، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 198.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزن).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (وزن).
(7) القاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 198، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 82.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قسط).
(9) الخليل، العين، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (قسط).
(10) الجوهريّ، الصّحاح، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قسط).
(11) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 451، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 198.

4) ﴿مِثْقَالَ﴾ (ثقل) أصْلٌ واحِدٌ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ كَلِماتٌ مُتَقارِبَةٌ، وهو ضِدُّ الخِفَّةِ[1]، والأثْقالُ: الأحمالُ الثَّقيلة، ومِثْقالُ الشَّيْءِ: ميزانُهُ مِنْ مِثْلِهِ، وقولُه تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40] أي: زِنةِ ذرّة[2]، والمِثْقالُ: ما يوزن به، وأصلُه في الأجسام ثم يُقال في المعاني[3]، وكُلُّ شَيْءٍ لَهُ قَدْرٌ ووزنٌ يُنافَسُ فيه فهو ثِقَلٌ[4]، ومعنى ﴿مِثْقَالَ﴾ في الآية: ميزانه من مثله ومقداره[5]، أي وزْنُ حَبّةٍ من خَرْدَلٍ[6].

﴿حَبَّةٍ﴾: الحَبُّ: مَعْروفٌ مِنَ الحِنْطَةِ والشَّعيرِ، والواحد حَبّة[7]، والحبّةُ من الشّيء: القطعةُ منه، والحَبُّ: الزَّرْعُ صَغيرًا كانَ أم كَبيرًا[8]، والحَبَّةُ: حَبَّةُ الطَّعام: حَبَّةٌ من بُرٍّ أو شعير أو عَدَس أو رُزٍّ، وكلُّ ما يَأْكُلُهُ النّاس، والحِبَّةُ بكسر الحاء بُزورُ البُقولِ والرَّياحين، واحِدُها حَبّ[9]، ومعنى ﴿حَبَّةٍ﴾ في الآية موافق للمعنى اللّغويّ: أي الواحدةُ والقطعة من الخردل.

5) ﴿خَرْدَلٍ﴾: يُقال خَرْدَلَ الطَّعامَ خَرْدَلةً: أكَل خيارَهُ وأطايبَه، وخَرْدَلَ اللَّحْمَ: إذا قَطَع أعضاءَه وافِرَةً، أو قَطَعَهُ صِغارًا وفَرَّقَهُ[10]، والخرْدَلُ معروفٌ، واحدتُه خَرْدَلَةٌ، ويُضْرَبُ بها المثلُ في القلّة والتّلاشي[11]، وهو نباتٌ عُشبيٌّ، يَنْبُتُ في الحقول وعلى حواشي الطُّرق، بذوره لاذعةٌ تُستعمل في الطبِّ، ويُتَبَّل بها الطعام، وبِحَبِّه يُضرَب المثلُ في الصِّغَر[12]، والمعنى في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ.

6) ﴿حَسِيبِينَ﴾: الحَسْبُ: العَدُّ والإحْصاءُ، وحَسَبْتُهُ أحْسَبُهُ إذا عَدَدْتَه، والمعدودُ محسوبٌ، والحَسيبُ في أسماءِ اللّه تَعالى: هو الكافي[13]، والحسابُ: استعمالُ العَدَدِ

(1) ابن فارس مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثقل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ثقل)، والزَّبِيديّ، تاج العروس: (ثقل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ثقل).
(4) الكَفَوِيّ، الكلّيّات، ص: 323.
(5) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 86.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 452.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حب).
(8) الجوهريّ، الصّحاح، والزَّبِيديّ، تاج العروس: (حبب).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيّده، المحكم: (حب).
(10) الزَّبِيديّ، تاج العروس: (خردل).
(11) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 497.
(12) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خردل).
(13) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حسب).

والتَّقديرُ، والحسيبُ بمعنى المُحاسب: وهو مَنْ يحاسبُك، ثم يُعبَّرُ به عن المُكافِئ بالحساب، و(حَسْبُ) يُستعمل في معنى الكفاية[1]، ومعنى ﴿حَٰسِبِينَ﴾ في الآية: عادّين مُحْصينَ[2]، وقيل: كفى بنا عالِمينَ حافظين؛ لأنّ مَنْ حَسَبَ شيئًا عَلِمَهُ وحَفِظَه[3]، وقيل: مُجازينَ على ما قَدَّموهُ من خيرٍ أو شرٍّ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانٌ لحسابٍ عادلٍ توزنُ فيه الأعمالُ في يومٍ لا تُظلَمُ فيه نفسٌ

يَتَحَدَّثُ البيانُ القرآنيُّ عن ربِّ العزَّةِ ﷻ بأنَّه: يُقيمُ الموازينَ العادِلةَ يومَ القيامةِ؛ لِوزنِ أعمالِ العِبادِ عند حسابِهم، فلا يَظلِمُ اللّهُ نفْسًا يومَ القيامةِ بالنَّقصِ من حسناتِها، أو بمُعاقَبتِها بغيرِ ذَنْبِها، أو بالزّيادةِ في سيِّئاتِها، وإنْ كان الَّذي للعبدِ مِنْ عملِ الحسناتِ، أو عليه مِن السَّيِّئاتِ وزنَ حَبَّةٍ مِن خَردلٍ، جِئنا بها لِتوزنَ في الميزانِ وكفَى بنا عالِمينَ بأعمالِ العِبادِ، حافِظينَ لها، مُثبِتينَ لها في الكتابِ، عالِمينَ بمقاديرِها ومقاديرِ ثوابِها وعِقابِها واستِحقاقِها، موصِلينَ للعامِلينَ جزاءَها، ولن نظلمَهم شيئًا؛ فليس في الحسابِ أحدٌ مِثلُنا[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في المَطْلَعِ:

جزاء الكفر والتّكذيب واقعٌ محقَّقٌ يومَ الحساب

يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في قوله ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ عاطفةً عطفَتْ هذه الجملةَ على جُملة: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ﴾؛ لِمُناسبةِ قولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، ولبَيانِ أنَّهم مُجازَونَ على جَميعِ ما أسْلَفوهُ من الكُفْرِ وتَكذيبِ الرَّسولِ، بَيانًا

(1) الرّاغب، المفردات: (حسب)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 402.
(2) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 294، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 35.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 96.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 485.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 524.

بطريقِ ذِكْرِ العُمومِ بعدَ الخُصوصِ في المُجازَيْنَ، فشابَهَ التَّذييلَ؛ من أجلِ عُمومِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، وفي المُجازَى عليه؛ من أجلِ قولِه: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ مِن ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، وأنْ تكونَ نونُ التَّعظيم للمتكلِّمِ العظيمِ سبحانَه التِفاتًا لمُناسبةِ الجزاءِ للأعمالِ؛ ولذلك فرَّعَ عليه قولَه تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[1]، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ معترضةً، وأنْ تكونَ الواوُ اعتراضيَّةً[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿وَنَضَعُ﴾ وإيثارُ صيغةِ التَّعْظيم:

في التّعبير بوَضْعِ الموازين في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ – سواءٌ أُريد به معناه الحقيقيُّ أم المَجازيُّ – تنبيهٌ للغافلين، أي: فليبادرِ الغافلون المعرِضون والمستهزئون المكذِّبون؛ لأنَّ موازينَ الحسابِ تُوضَعُ لِتُنْصَبَ وليُرْصَدَ الحسابُ، وما هذه الموازين إلا واحدةٌ من نواميسِ الكون القائم على القسطِ والعدل، تشهدُ بالوحدانيّة التي هي محورُ السّورة"[3]؛ تطمينًا لهم وتعريضًا بالكافرين[4].

وَضْعُ موازينِ العظيم تنبيهٌ للغافلين ونَفْيٌ لوقوعِ أدنى ظُلمٍ

وأبرزَ البيانُ القرآنيُّ فعْلَ ﴿وَنَضَعُ﴾ في مظهرِ العَظَمة باستعماله صيغة التّعظيم؛ إشارةً إلى سهولته عنده ﷻ، وإنْ كان هذا مُتَعذِّرًا عندنا؛ لكثرةِ الخلائق وأعمالِ كلٍّ منهم[5]، وإشارةً إلى أنّ عَظَمَتَهُ في إحاطةِ علْمِه وقدرته تأْبى وقوعَ أدنى ظُلمٍ منْ أيِّ أحدٍ؛ لأنّ العادةَ جَرَتْ بأنَّ المَلِكَ قد يكونُ عادلًا، ولكنْ قد يقعُ الظُّلم من بعض أتْباعِه فقال بعدها ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[6]، وفي استعمالِ صيغةِ التّعظيم كذلك دلالةٌ على وجوبِ تعظيمِنا اللّهَ وحدَه.

وَضْعُ الميزان والحكمُ على الخلائق بالعدل يسيرٌ عند العظيم الخالق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 80.
(3) البَغَوِيّ، معالم التّنزيل في تفسير القرآن: 7/ 111.
(4) محمد نديم فاضل، التضمين النحوي في القرآن الكريم: 2/ 291.
(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.

لَفْظا (الوَضْعِ)، و(الميزانِ) بينَ بلاغةِ المَجاز والحقيقة:

في نَصْبِ الموازين أو إظهارِ العدلِ الإلهيِّ بيانُ دِقّةِ حِسـابِ اللـه وعظيمِ عَدْلِه

الفعْل ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ﴾ إمّا أنّه مستعمَلٌ في معناهُ الحقيقيِّ وهو النَّصْبُ للموازين، وذلك إذا كان المرادُ بالموازين الحقيقةَ لا المجازَ، أي: إنّها موازينُ جعلَها اللّهُ لوَزْنِ أعمالِ العباد، لا تُشْبِهُ موازينَ الدُّنيا، ولكنَّها على مِثاله تقريبًا سواءٌ أكانتْ ميزانًا واحدًا للكلّ، أم ميزانًا واحدًا لكلِّ عَبْدٍ[1]، وإمّا أنّه مستعمَلٌ في معناهُ المجازيّ، وهو "إرصادُ الحسابِ السّويّ، والجزاءُ على حسبِ الأعمال بالعدل والنَّصَفَةِ مِنْ غيرِ أنْ يُظلَم أحدٌ مثقالَ ذرَّةٍ"[2]، فإذا كان المرادُ بالموازين المجازَ، أي: مَثِّلْ للعدْلِ في الجزاءِ، فهو مُستعارٌ للعدلِ في الجَزاءِ لِمشابهتِه الميزانَ في ضبطِ العدلِ في المعاملةِ كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد:25]، والوضْعُ: ترشيحٌ ومُستعارٌ للظُّهورِ[3]، وسواءٌ أُريد المعنى الحقيقيُّ أم المجازيُّ لِلَفْظَي ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ﴾ فالغرضُ هو بيانُ دِقّة عدلِ اللّه سبحانه وعظمةِ هذا العدل في يومٍ لا تُظلمُ فيه نفسٌ شيئًا.

وَجْهُ جَمعِ ﴿ٱلۡمَوَٰزِينَ﴾:

دِقّةُ حِسابِ الله تعالى، وفخامةُ عدلِه، وعظمةُ قِسْطِه سبحانَه

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن لفظ الموازين بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ﴾؛ إمّا للدلالةِ على أنّ اللّهَ جعلَ لكلِّ أحدٍ من العبادِ ميزانًا خاصًّا به توزنُ به أعمالُهُ[4]، أو للعبدِ الواحدِ موازينُ يوزَنُ بكلِّ واحدٍ منها صِنفٌ من أعمالِه، وهو ظاهرُ القرآنِ الكريم، لقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف:8]، وقوله: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف:9]، وظاهرُ القرآنِ لا يجوز العدولُ عنه إلّا بدليلٍ يجبُ الرُّجوع إليه[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 82.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 120.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 30.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 30.
(5) الشَّنْقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 159، فصول في أصول التّفسير، ص: 146.

ويمكن أن يكون المرادُ أنَّه ميزانٌ واحدٌ، وإنّما أُطْلِق عليه اسمُ الجمعِ تفخيمًا وتعظيمًا له[1]، فالعَرَبُ قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحدِ تفخيمًا له، أو أنَّه إنَّما جُمِعَ باعتبارِ ما يوزَنُ فيها؛ ليوافقَ الآثارَ الواردةَ في أنَّه ميزانٌ عامٌّ، أي: باعتبارِ تعدُّدِ الأعمالِ الموزونةِ فيه وكثرتِها، وكثرةِ الأشخاصِ العاملينَ الموزونةِ أعمالُهم[2]، فلكلِّ أحدٍ وزْنٌ يَخُصُّهُ[3]، أو أنّ الموازينَ جمعُ موزونٍ، والموزونُ هو الحسناتُ والسيئاتُ، وجمعُ (الموزونِ) على (موازينَ) جمعٌ قياسيٌّ مُطَّرِدٌ[4]، والمعاني السابقة لجمع الموازين تشير كلُّها إلى أمرٍ مشتَرَكٍ، وهو دِقّةُ حِسابِ اللّه تعالى، وفخامةُ عدلِه، وعظمةُ قِسْطِه سبحانَه.

سِرُّ توحيدِ ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ والوصفِ به:

وَصْـفُ المـوازيـنِ بالقِسطِ كأنَّها العدلُ ذاتُه

جاء وصْفُ الموازينِ بلفظ ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ موحَّدًا؛ إمّا لأنّه مصدرٌ وُصِفَ به، ويقعُ على القليلِ والكثيرِ"[5]، وهو بمنزلة قولك للقوم: أنتُم رِضًى وعَدْلٌ[6]، وذلك للمبالغةِ في اتّصافها بالعدل، كأنَّها في أنفُسِها قِسْطٌ[7]، أو على حذفِ المضافِ، أي: ذواتِ القِسْطِ[8]، ويجوزُ أنْ يكونَ مفعولًا لأجْلِه، أي: لأجْلِ القِسْطِ، أو لأنّه لَمّا كانت الموازين آلةَ العدلِ، وصَفَها به مبالغةً[9]؛ لأنَّ الميزانَ قد يكونُ مستقيمًا وقد يكونُ بخلافِه، فبيَّنَ أنَّ تلك المَوازينَ تجري على حدِّ العدلِ والقِسْطِ، وأكَّدَ ذلك بقوله:

(1) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1202.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 345، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 82.
(3) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 4/ 85.
(4) الشِّربينيّ، السّراج المنير: 1/ 464.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.
(6) الفَرّاء، معاني القرآن: 2/ 205.
(7) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 120، والبَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 53، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9554.
(8) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 394.
(9) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.

﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾[1]، فهو إخبارٌ عن العدلِ بأنّه سبحانه يعدلُ بينهم يومئذ[2].

دلالة اللّام في ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

لأجلِ العدلِ تُوضعُ الموازينُ يومَ القيامة

(اللّامُ) في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ للعلّةِ مع تقديرِ مضافٍ، أي: لأجلِ يومِ القيامةِ، أي: الجزاء في يومِ القيامةِ؛ وتحتملُ أنْ تكونَ للتّوقيتِ بمعنى (عِنْدَ) الّتي هي للظَّرفيَّةِ الملاصقةِ كما يُقالُ: كُتِبَ لِثَلاثٍ خَلَوْنَ من شهرِ كذا، وكقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:1] أيْ: نَضَعُ الموازينَ عندَ يومِ القيامة[3]، أو بمعنى (في) فلا يحتاج إلى تقديرِ محذوف[4]، أي نضعُ الموازين في يوم القيامةِ الّتي كانوا يستعجلونها[5]، ويرى أبو زَهرة أنّه الأوضحُ والأبينُ[6]، وقد استعملَ اللّام عِوَضًا عنها لِبيانِ العلّة؛ لأنّ الجزاءَ عِلّةٌ في وضْعِ المقاديرِ، أي لبيانِ العدْلِ الذي من أجله كانت القيامة[7]، وليشمل كذلك - مع ما يوضَعُ فيه - ما وُضِعَ الآنَ لِأجْلِ الدُّنْيَويَّةِ فيهِ[8]، أو لِلاخْتِصاصِ[9]، أي وضْعُ الموازينِ مختصٌّ بيومِ القيامة.

إيثارُ لفظِ (يوم القيامة) دونَ غيرِه:

التّعبيرُ بيومِ القيامةِ أنْسَبُ لقيامِ النّاسِ ولإقامةِ العدلِ في ذلك اليوم

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بلفظ (يوم القيامة) في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ولم يُعبِّر مثلاً بلفظِ (الساعة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148.
(2) المَاتُرِيدِيّ، تأويلات أهل السنة: 4/ 363.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 84.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.
(5) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 120، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 341، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(6) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4875.
(7) محمّد عبد المنعم القِيعيّ، الأصلان في علوم القرآن، ص: 282.
(8) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.
(9) السّامُرّائيّ، معاني النّحْوِ: 3/ 68.

أو الآخرة)؛ لكونِ لَفْظِ (يوم القيامة) - الّذي هو مأخوذٌ مِنْ قيامِ النّاس لربّ العالمين أَنْسَبَ لمقامِ إقامةِ العدل في ذلك اليوم العظيم ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: 5 - 6]، وأَنْسَبَ للسّياق الّذي ورد فيه لفظُ ﴿وَنَضَعُ﴾ والّذي معناه في الآية: (النَّصْبُ والإرْصادُ للموازين، أي: ونُحْضِر ونُقيمُ الموازينَ العادلة[1]، وبخاصّةٍ أنّه قد ورد في السّياق كذلك ذِكرُ يوم القيامة بلفظٍ آخرَ ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ بما يحقّقُ تَفنُّنًا في الكلام.

دلالةُ حذفِ المضافِ في قوله ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

الحذفُ أبلغُ اختصارًا وموافقةً للسّياق، ولأنّ ما يُلْحَظ لا يُلْفَظ

حذفَ البيانُ الإلهيُّ المضافَ في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ إذِ التّقدير: (ونضعُ الموازينَ القِسْطَ لحسابِ يومِ القيامةِ، أو لحكمِ يومِ القيامَةِ، أوْ لأجلِ أهْلِه)[2]؛ فكان الحذفُ اختصارًا؛ للعلمِ به، فالعربُ لحدَّةِ ذهنِها لا تَلْفِظُ ما يُلْحَظ؛ فلفظُ الموازين يدلُّ بشيءٍ منَ الملاحظةِ على الحسابِ والحُكْم؛ إذ هي في اللغةِ الآلةُ التي توزَنُ وتُحسبُ بها الأشياءُ، ولأنّ من أسماءِ يوم القيامة: يومَ الحساب، ويومَ الفصل، ويومَ الجزاء.

معنى الفاء في قوله ﴿فَلَا تُظْلَمُ﴾:

إيفاءُ الجزاءِ وِفاقَ العملِ نَفْيٌ للظُّلم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ للتّفريع، فقد فُرِّعَ على وضْعِ الموازينِ تَفريعَ العِلَّةِ على المعلولِ، أو المعلولِ على العِلَّةِ، والظُّلمُ: ضِدُّ العدْلِ، ولذلك فُرِّعَ نَفْيُه على إثباتِ وضْعِ العدْلِ[3]، وكذلك للتّرتيب، أي لِتَرتيبِ انْتفاءِ الظُّلم على وضْعِ المَوازين[4]، وللسّببيّة؛ أي تسبَّبَ عن وضْعِ الموازينِ أنَّهُ لا تُظلَم نفسٌ شيئًا مِنْ عَملِها[5].

(1) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/ 217، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 81، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 198.

(2) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 4/ 85.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 84.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم:

(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 532.

بلاغةُ النَّفي بـ (لا) دونَ (ما) وفائدتُه في قوله ﴿فَلَا تُظۡلَمُ﴾:

المرادُ نَفْيُ عُمومِ وقوعِ الظّلمِ يومَ القيامةِ لا نَفْيُ عمومِ وقوعِه في الحال

آثرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفي بحرفِ (لا) في قوله: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ دون (ما) فلم يقلْ: (فما تُظلمُ نفسٌ شيئًا)؛ لأنّ من معاني (لا) أنّها تُخَلِّصُ المضارعَ للمستقبل بخلاف (ما) فإنّها تُخَلِّصُ المضارع للحال، وليس المقصودُ في الآية نَفْيَ عمومِ وقوعِ الظُّلم في الحال، وإنّما المقصود نفيُه يومَ القيامة.

سِرُّ بِناءِ الفِعلِ ﴿تُظۡلَمُ﴾ للمفعول:

عَظَمَتُهُ سبحانه في إحاطَةِ عِلْمِه وقُـدرتِـه تـأبى وقوعَ الظلمِ يومَ الحساب

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ المبني للمفعولِ ﴿تُظۡلَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾؛ لتركيزِ الانتباه على الحدثِ ذاته، وهو عدمُ الظُّلم، وحصرُ الوعي فيه، فلا يتوزّع في غيره، ولإفادةِ العموم[1]، وخاصّة أنّ الفعلَ جاء في سياقِ النّفْي، إذ لو أتى بالمبني للمعلوم لَقَيَّدَه بفاعلٍ واحدٍ فقط، أي: لَنَفَى وقوعَ الظُّلم من الفاعل المذكور فقط، فلو قال: (فلا يَظْلِمُ ربُّك نفسًا شيئًا)، لاقْتصرَ نفيُ وقوعِ الظُّلم من الله فقط، ولكن لَمّا بُنِيَ الفعلُ للمفعول أفادَ نَفْيَ وقوعِ الظّلم في يومِ الحسابِ والحقِّ والعدلِ من الله وملائكتِه ومن المخلوقات لبعضها، وبخاصّةٍ أنّه جَرَتِ العادةُ بأنّ المَلِكَ قد يكونُ عادلًا، ولكنْ قد يقعُ الظلمُ من بعض أتباعِه، فبيَّنَ سبحانَه أنّ عظَمَتَهُ في إحاطةِ عِلْمه وقُدْرَتِه تأْبى وقوعَ الظّلم من أيِّ أحدٍ[2]، وإفادتُه للعموم جاءتْ متناسبةً مع سياقِ الآية التي توحي كلُّها بالعموم والشُّمول؛ عمومِ النَّفْي للظُّلم، أو عمومِ الظُّلم المَنْفيِّ لكلِّ نفسٍ، في شيءٍ ما من الأشياء، وجاء التّعبير بالجمع ﴿ٱلۡمَوَٰزِينَ﴾ وبالمصدر ﴿ٱلۡقِسۡطَ﴾ للدلالة على تناهي العدْلِ المُطْلَقِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.

إيثارُ لفظِ النَّفْس مفردًا منكّرًا:

الظُّلمُ مَنْفيٌّ يومَ القيامة عنْ كلّ نفسٍ منَ النّفوس

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التعبيرَ بلفظ ﴿نَفْسٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ مفردًا؛ لأنّ استغراقَ المفردِ أشملُ[1]، وهذا يتناسبُ مع السّياق المتضمّنِ المبالغةَ في نَفْيِ عموم الظّلم النَّفْيَّ الشّاملَ لكلِّ نفسٍ منَ النّفوس، لكونِ لفظِ ﴿نَفْسٌ﴾ وقعَ نكرةً في سياقِ النَّفي، والمعنى: قد نُفيَ الظُّلمُ عن كلِّ نفسٍ[2]، ووُفّي كلُّ ذي حقّ حقَّه إنْ خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرّ[3].

فائدة التَّعبيرِ بالمفعولِ المُطْلَقِ:

تأكيدُ نَفْيِ أيِّ شيءٍ من الظُّلم دليلٌ على عِظَمِ هـذه المـوازيـن ودقّتها

﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ منصوبٌ على المفعوليّة المطلقة لـ ﴿تُظْلَمُ﴾ بالمعنى، أيْ: لا تُظْلَمُ ظلمًا ما[4]، أو لا تُظْلَمُ شيئًا منَ الظُّلم، ووقوعُه - أي المفعول المطلق - في سياقِ النَّفي دلَّ على تأكيدِ العمومِ من فِعْلِ ﴿تُظْلَمُ﴾ الواقعِ أيضًا في سياقِ النَّفي، أيْ لا تُظْلَمُ بِنَقصٍ من خَيْرٍ استحقَّتْهُ ولا بزيادةِ شيءٍ لم تستحقَّه[5].

كما أنّ التّعبير بلفظ ﴿شَيْـًٔا﴾ دون ظلمًا؛ للدّلالة على القلّة[6]، التي تتناسبُ مع المبالغةِ في نَفْيِ عمومِ الظُّلم، وهذا يشيرُ إلى عِظَمِ هذه الموازين ودقّتها، وأنّها تزِنُ الجليلَ والحقيرَ والكبير والصغير من الأقوال والأعمال.

دلالة الواو في قوله ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾:

التّأكيدُ على نَفْيِ عمومِ الظُّلم

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ أنْ تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه جملة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[7]، والتّقدير: (أيْ وإنْ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 532.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 532.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 532.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 321.

كانَ العَمَلُ أو الظُّلْمُ مقْدارَ حَبَّةٍ فلا تُظلمُ نفسٌ شيئًا)، وهذا على قراءةِ الجماعةِ بالنَّصْب ﴿مِثْقَالَ﴾[1]، أو أنْ تكونَ استئنافيّةً، وهذا على قراءةِ نافعٍ بالرفع ﴿مِثْقَالُ﴾[2]، أو حاليّةً، وجُملةُ ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ في مَوْضِعِ الحال[3]، والمعنى: فلا تُظلم نفسٌ شيئًا وإن كان حالُ هذا العملِ أو الظُّلم مثقالَ حبّةٍ من خردلٍ، أو للتّأكيد، والمعنى: فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئًا إنْ كان مثقالَ حبّةٍ من خردل[4].

والواو هنا على اختلافِ معانيها عاطفةً كانت أو استئنافيةً أو حاليّةً أو للتّأكيد تؤكّد نَفْيَ عمومِ الظُّلم في الآية الكريمة.

فائدة (إنْ) في قوله ﴿وَإِن كَانَ﴾:

يجوز أنْ تكونَ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ وصْليَّةً، أيْ: أنَّها لمجرَّد الوصلِ والرَّبطِ في مقامِ التَّأكيدِ، وليس المقصود منها الشَّرط، أي: أنّها دالَّةٌ على أنَّ مضمونَ ما بعدها من شأنِه أنْ يُتوهَّمَ تخلُّفُ الحُكْمِ عنهُ، فإذا نصَّ على شمولِ الحُكْمِ إيّاهُ عُلِمَ أنَّ شُمولَهُ لِما عداهُ بطريقِ الأَوْلى[5]، وبيان ذلك: أن قولَهُ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ جوابُ سُؤالٍ مُتعجِّبٍ من الحُكْم، وهو قولُهُ: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ فكأنَّهُ قالَ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ فأُجيبَ بتقريرِ ذلك، ويجوز أنْ تكون (إنْ) شرطيّة؛ ومفادها مجرّد التأكيد[6].

تأكيدُ نَفْيِ عمومِ الظُّلم يومَ القيامةِ مهما كان العملُ أو الظُّلم قليلًا

دلالة صيغة مِفْعال وإيثارُ لَفْظِ المِثْقال:

استعملَ البيانُ القرآنيّ لفظ ﴿مِثْقَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ ومعناه في اللغة: ميزانُ الشيءِ من مثله[7]،

عِلْمُ الله محيطٌ بكلّ شيءٍ لا يغيبُ عنه أدقُّ الأعمالِ ولا أصغرها

(1) البَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 53.
(2) الهَرَرِيّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 18/ 105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85، 3/ 307.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 307.
(7) الجوهريّ، الصّحاح، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ثقل)، والقُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 86.

أي وزنُ حبّةٍ من خردلٍ[1]، وصيغةُ مثقال على وزن مِفْعال، لكونه اسم للآلة التي يُعرفُ به مقدارُ ثقلِ الشيء.

وفي الإتيانِ بالمثقالِ لوزنِ حبّةٍ واحدةٍ من الخردلِ - الّذي يضرب بها المثل في الصغرِ والقلّةِ والتّلاشي - [2] مبالغةٌ أيّما مبالغة، ليدلّ على عِظمِ إحاطةِ علمِ اللّه سبحانه بكلّ شيء، إذ لا يغيبُ عنه أدقُّ الأعمال وأصغرها وأحقرها، وإنّ ما هو أعظمُ من حبّةِ الخردلِ يكونُ أولى بالحكم، ولا يضيعُ عنده سبحانه أجرُ أيّ عملٍ وإنْ تناهى في الصغر، أوْ لم يُرَ، كالنّيّة الخفيّة مثلاً.

توجيه القراءة في قوله ﴿مِثْقَالَ﴾:

معنى القراءتيْنِ مُـتَّـحِـدُ المـآل وهو أنّه لا ظُلمَ يومئذٍ

قرَأ جمهورُ القرّاء: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنَصْبِ على أنَّهُ خَبَرُ ﴿كَانَ﴾، أمّا اسْمُها فضميرٌ عائدٌ إلى ﴿شَيْـًٔا﴾، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ دلَّتْ عليه الجملةُ السّابقةُ، وتكون جملةُ ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ مستأنفةً، والمعنى: وإنْ كانَ العَمَلُ أو الظُّلمُ مقدارَ حبَّةٍ فلا تُظلم نفسٌ شيئًا.

وقرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ: ﴿مِثْقَالُ﴾ مرفوعًا على أنَّ ﴿كَانَ﴾ تامَّةٌ، و﴿مِثْقَالُ﴾ فاعلٌ، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة:280][3]. وجملةُ ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ جوابٌ للشَّرطِ، والمعنى: وإنْ حصلَ للعبدِ مثقالُ حبّةٍ من خردَلٍ أتينا بها[4].

وهذا التّوجيه عند مَنْ عَدّها شرطيّة، ومعنى القراءتيْنِ مُتَّحِدُ المَآلِ، وهو: أنَّه إنْ كانَ لِنَفْسٍ مِثْقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من خَيْرٍ أو من شَرٍّ يُؤْتَ بها في ميزانِ أعمالِها وتُجازَ عليها[5]. فمن بلاغة القراءات هنا أن الحذف والإضمار في قراءة الجمهور أوضحته

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 452.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 497، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خردل).
(3) ابن الجزري، النشر: 2/324.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 394.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 86.

القراءة الأخرى. فالحجة لمن نصب أنه أضمر في ﴿كَانَ﴾ اسمًا، تقديره: (وإن كان الشيءُ مثقالَ حبّة من خردل من عمل أو ظلم أتينا بموزونها). وهذا الشيء هو المذكور قريبا قبلُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾. والقراءة الأخرى أوقعت الفعل مباشرة عليه بجعله فاعلا: (وإن وقع مثقالُ حبةٍ من خردل من عمل أو ظلم أتينا بموزونها).

وَجْهُ تنكير ﴿حَبَّةٍ﴾:

المبالغةُ في الصّغرِ والدّقةِ كنايةٌ عن إحاطةِ العلمِ ودقّةِ الحساب

نَكَّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿حَبَّةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾؛ للمبالغةِ في إفادةِ معنى التّقليل؛ لأنّ الخردلَ حبٌّ في غايةِ الصّغرِ والدّقّة، أي: إنّ مادّته تدلُّ على القلّة، فإذا عبّر بحبّة واحدة ونُكِّرَ لفظُها فإنّ ذلك يفيدُ المبالغةَ في التّقليل، بما يدلُّ على تصويرٍ لإحاطةِ علمه سبحانه، والتّناهي في دقّة حسابه، وعدم مغادرته لشيءٍ من أعمالِ النّاس[1].

معنى حرف الجرِّ ﴿مِّنْ﴾:

من عظمةِ قدرةِ اللهِ إحصاءُ الأعمالِ مهما بلغتِ الغايةَ في القلّة

المقصودُ من الإتيان بحرف الجرّ ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ توكيدُ عظمةِ قدرةِ الله على الإحاطة بالأعمال التي عَمِلَها الإنسانُ في الدّنيا في صحيفة عمله لتوزن، وإن كانت في نهايةِ الحقارةِ والقلّة، وكفى بالله عادًّا ومُحصيًا على النّاس أعمالهم؛ إذ لا يخفى عليه شيءٌ منها سواءٌ أكان ذلك قليلًا أم كثيرًا[2].

إيثار لفظ ﴿خَرْدَلٍ﴾ مُنَكَّرًا:

المبالغةُ في القلّةِ دليلٌ على أنّه لا يضيع عند الله شيءٌ مهما صَغُر

آثرَ القرآنُ لفظَ ﴿خَرْدَلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ تمثيلًا على القلّة والحقارة؛ لأنّه غايةٌ في القلّة[3]، ولذا

(1) سيّد طنطاويّ: التّفسير الوسيط: 9/ 217.
(2) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 217.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.

يُضربُ به المثلُ عند العرب في القلّة والتّلاشي[1]، والغرضُ من التعبير به مُنَكَّرًا المبالغةُ في القلّة، أي: المبالغةُ في أنَّ شيئًا من الأعمالِ صغيرًا كان أو كبيرًا غيرُ ضائعٍ عنْد اللّه تعالى[2]، وهذا يدلُّ على استقصاء كلِّ شيء؛ لأنّ حَبّة الخردلِ تدلُّ على صِغَر الحجم، وكلمةَ مثقالٍ تدلُّ على صغَر الوزن، فجمعَ بين صِغَر الحجمِ وصغرِ الوزن[3].

سِرُّ إيثارِ فِعْلِ ﴿أَتَيْنَا﴾ دون (جئنا):

الحسابُ عند العظيمِ مُطاوِعٌ وسَهلٌ وسريعٌ فلا يُعجِزُه شيءٌ

آثرَ البيان القرآنيّ مفردةَ ﴿أَتَيْنَا﴾ دون (جئنا) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾؛ للدّلالةِ على سهولةِ الحسابِ وسرعته ومطاوعته عند العظيم سبحانه الّذي لا يُعجزه شيءٌ؛ لأنّ الإتيانَ في اللّغة يعني المجيءَ بسهولة، بخلافِ المجيءِ الّذي يكونُ في الشَّيء الّذي فيه صعوبة وشِدَّةٌ للوصول إليه[4].

نكتة التّعبير بفعل الإتيان ماضيًا:

منتهى الغاية في التأكيد في اللغة العربية استعمال الماضي للمستقبل

عبّر البيانُ القرآنيّ بلفظ الماضي في فعل الإتيان في قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا بِهَا ۗ﴾ مع أنّ الإتيان لم يقعْ بعدُ، وسيكون في المستقبل، أي: في يوم القيامة ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1] تعبيرًا عن مجيء يوم القيامة، وذلك لِأنّ القيامةَ مؤكَّدَةُ الوقوعِ بلا أدنى شكٍّ وكأنّ أحداثها الّتي ستقع؛ كالماضي الّذي وقع، وهو مما لا شكّ فيه عند أحدٍ أبدًا، والمعنى: وسيأتي اللّه قطعًا بذلك العَمَلِ المُعَبَّرِ عنه بِمِثْقالِ حَبَّةِ الخَرْدَلِ وزنًا ليُجازي عليه بلا أدنى شكٍّ.

سرّ إضافة فِعْل الإتيان إلى ضمير العَظَمة:

العادلُ العظيمُ في علمه وقدرته لا يكون حسابُه إلا دقيقًا وعادلًا

أضافَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ الإتيان إلى ضمير العَظَمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ﴾؛ تأكيدًا على دقّة

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 497، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خردل).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 150.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9558.
(4) الرّاغب، المفردات: (أتى).

هذا الحسابِ وعدالته؛ فالذي يُحضِرُ عملَ العبادِ أو ظلمَهم - مهما بلغَ في صغره - هو اللّه الذي يعلمُ كلّ شيءٍ وقادرٌ على كلّ شيء، فلا حسابَ بعد حسابِ اللّه ولا أدقَّ منه ولا أعدلَ، والمعنى: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ بما لنا من العَظَمَةِ في العِلْمِ والقدرةِ وجميعِ صفاتِ الكمالِ فحاسبْناهُ عليها[1].

معنى الباء في قوله ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾:

دلالـةُ الإلصاق بيانٌ لكمالِ عدْلِ اللـه سبحانه ودقّةِ حسابِه

الباءُ في قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ للإلصاق؛ فالإحضارُ ملتصقٌ بها لا ينفكُّ عنها، أيْ: أتينا بأعمالهم التي لهم أو عليهم، فإنْ كانتْ لهم علموا أنَّ اللّه لا يظلمهم، بل يبحثُ لهم عن أقلِّ القليلِ من الخير، وإنْ كانتْ عليهم عَلموا أنَّ اللّهَ يستقصي كلَّ شيءٍ في الحسابِ[2].

دلالة تأنيث الضّمير ﴿بِهَا﴾:

لا يغيبُ عن علمِ اللـه وحسابِه شيءٌ مهما كان قليلًا

الضّمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ راجعٌ إلى المِثْقالِ، وهو مُذكَّرٌ، وتَأْنيثُ ضميره لإضافَتِه إلى ﴿حَبَّةٍ﴾، أي اكتسبَ التّأنيثَ من المُضاف إليه؛ مبالغةً في تَحْقيرِ هذا العمل بضميرِ التَّأنيثِ والتّقليلِ من شأنه[3].

معنى الواو في ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾:

إظـهـارُ عظمةِ اللـه بإحضارِ الأعمال ووزنها بـقـدرةِ مَـنْ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾[4]، والمعنى العامُّ الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه هو أنّ كِلَيهما يتحدّث عن بيانِ عظمة اللّه سبحانه يوم الحساب ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾، و﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾، ولكنّ الجملةَ الأولى تُقَرِّرُ عظمةَ اللّه وقدرتَه في إحضارِ الأعمال بما له من العَظَمَةِ في العِلْمِ

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9558.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 86.

والقُدْرَةِ وجميعِ صفاتِ الكمالِ، وأمّا الجملة الثانية فتُقَرِّرُ عظمتَه سبحانه في وزْنِ هذه الأعمالِ بقُدْرةِ مَنْ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يكونُ في الحسابِ أحدٌ مِثْلُه[1].

إيثار التّعبير بالفعل ﴿وَكَفَىٰ﴾:

لا حسابَ بعد حسابِ الله فلا أدقَّ منه ولا أعدلَ، وفي هذا الأمانُ كلُّه

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعل ﴿وَكَفَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾؛ لتقويةِ اتِّصافِ فاعله سبحانه ﴿بِنَا﴾ بوصْفٍ يدلُّ عليه التَّمييزُ المذكورُ بعدَهُ ﴿حَٰسِبِينَ﴾، أيْ: أنَّ فاعلَ ﴿وَكَفَىٰ﴾ أجْدَرُ مَنْ يَتَّصِفُ بذلك الوصْفِ؛ إذ إنّ أصْلَ التَّرْكيبِ: كَفَيْنا النّاسَ، بحيث يحصلُ إبْهامٌ يُشوِّقُ السّامعَ إلى معرفَةِ تفصيلِه، فيأْتونَ باسْمٍ يُمَيِّزُ نوعَ تلك النِّسبةِ ليتمكَّنَ المعنى في ذهنِ السّامعِ[2]، والتَّقْديرُ: (وكفى النّاسَ نَحْنُ في حالِ حِسابِهم)، أي: إنَّهم لا يتطلَّعونَ إلى حاسِبٍ آخَرَ يَعْدِلُ مِثْلَنا، وهذا تأْمينٌ للنّاسِ مِنْ أنْ يُجازى أحدٌ منهم بما لا يستحِقُّهُ، وفي ذلك تَحْذيرٌ من العذابِ وترغيبٌ في الثَّوابِ[3].

معنى الباء في قوله ﴿بِنَا﴾:

توكيدُ كفايةِ الله في الحسابِ يوم القيامة مدحٌ لحسابه

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾ حرف جرٍّ دخلَ على فاعلِ فعلِ ﴿وَكَفَىٰ﴾ لتَوْكيدِ نسبة الكفايةِ إلى اللّه، أي: إنَّ فاعلَ ﴿وَكَفَىٰ﴾ أجْدَرُ مَنْ يَتَّصِفُ بوصفِ الحساب، وقد غَلَبَ إدخال الباء في مثل هذا التركيب[4]، وقال الزّجّاج "دخلَتِ الباء في ﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾؛ لأنَّه خبرٌ في معنى الأمر، والمعنى اكتفوا باللّه حسيبًا"[5]، أو أنّها دخلتْ لشدّة التصاقِ الفعل بالفاعل، وتجيءُ في الأغلبِ في مدحٍ وفخرٍ، وكأنها تعطي معنى اكتفِ باللّه، أي: ما أكفاه سبحانَه في هذا![6].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 73، 17/ 87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 87.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 73، 17/ 87.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 394.
(6) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 3/ 445.

سرّ التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿حَٰسِبِينَ﴾:

حسابُ العظيم لأعمال الخلق ضبطًا وعلمًا ومجازاةً حسابٌ ثابتٌ

عبّر القرآنُ بصيغة اسم الفاعل ﴿حَٰسِبِينَ﴾ المفيد للثّبوت والدّوام في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ حسابَهم ثابتٌ وملازمٌ لهم في الدّنيا والآخرة؛ سواءٌ أكان بضبطِ حساب أعمالِهم وهو العَدُّ والإحْصاءُ، أي كفى بنا عادّين مُحْصينَ[1]، أي: إنَّهُ لا يَغيبُ عَنّا شَيءٌ من أعمالِهم، أم كان بضبط حِفْظِ أعمالهم صغيرِها وكبيرِها، أي: كفى بنا عالِمينَ، أم كان كِنايَةً عن المُجازاةِ[2]، أي كفى بنا مُجازينَ على ما قَدَّموهُ من خيرٍ أو شرٍّ[3]، والمعنى: فكفى به سبحانه حاسبًا، أي: عالمًا بأعمال العباد، حافظًا لها، مثبتًا لها في الكتاب، عالمًا بمقاديرها ومقاديرِ ثوابها وعقابها واستحقاقها، مُوصِلًا للعاملين جزاءَها[4].

وأتى باسم الفاعل مجموعًا مُراعيًا فيه ضميرَ العظمةِ من قولِه تعالى: ﴿بِنَا﴾[5]، المعنى: وكَفى بنا بما لنا مِنَ العظَمَةِ حاسبينَ، أيْ: لا يكونُ في الحِسابِ أحَدٌ مِثْلُنا[6]، فلا مزيدَ على علمنا وعدلنا[7]، وفي هذا تَوعُّدٌ من جهةِ أنَّ معناهُ أنَّهُ لا يَروجُ عليه شَيءٌ مِن خِداعٍ ولا يَقْبَلُ غَلَطًا، ولا يَضِلُّ ولا يَنْسى، إلى غيرِ ذلكَ مِن كُلِّ ما يَلْزَمُ منهُ نَوعُ لَبْسٍ أو شَوْبُ نَقْصٍ، ووعْدٌ مِن جِهَةِ أنَّهُ يَطَّلِعُ على كُلِّ حَسَنٍ وإنْ دَقَّ وخَفي[8].

وجهُ نَصْبِ قولِه ﴿حَٰسِبِينَ﴾ على التّمييز:

اللهُ هو المحاسبُ الحقُّ لا أحدَ غيره

انتصب ﴿حَٰسِبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾؛ على التّمييز؛ لما في نِسبةِ الكفاية في الحسابِ إلى اللّه منَ الإجمالِ الذي

(1) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 294، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 35.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 7/ 436.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 485.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 524.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 87.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 430.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(8) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 430.

يحتاجُ إلى بيانٍ، وذلك ليتشَوَّقَ السّامِعُ إلى مَعْرِفَةِ بيانِه، فيُؤْتَى باسْمٍ يُمَيِّزُ نَوْعَ تلكَ النِّسبَةِ ليتمكَّنَ المعنى في ذهنِ السّامِعِ[1]، والتّمييز هنا محوّلٌ عن فاعل، إذ أصلُ التّركيب: وكفى حسابُ اللّه، وفي هذا وعدٌ للمؤمنين ووعيدٌ للكافرين تقتضيه قوّةُ الكلام.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القِسْط والعَدْل:

القِسْطُ هو العَدْلُ البيّنُ الظّاهر، والعدلُ استواءٌ واستقامةٌ

القِسْطُ في اللّغة: العدلُ، والحِصّةُ والنّصيبُ، والإقْساطُ: العدلُ في القسمة والحكم، فهو إعطاءُ كلٍّ قِسْطَه[2]، والعَدْلُ في اللّغة: يدلّ على الاستواءِ في أحد معنَيَيْهِ[3]، وهو: ضِدّ الجَور، تقول: هو يعدلُ أي: يحكمُ بالحقّ والعدل، وتعديلُ الشّيء: تَقْويمُه، وإذا مال شيءٌ وأقَمتَه قُلْتَ: عَدَلتُه، أي أقمتَه فاعْتَدَل، أي اسْتَقامَ[4]، وقد فرّق بينهما العسكريُّ فقال: "القِسْط هو العدلُ البيّنُ الظّاهر، ومنه سُمّي المِكيالُ قِسْطًا، والميزانُ قِسطًا؛ لأنّه يصوّر لك العدلَ في الوزن حتّى تراه ظاهرًا، وقد يكونُ من العدلِ ما يخفى، ولهذا قُلنا: إنّ القِسْطَ هو النَّصيبُ الّذي بُيِّنَتْ وجوهُهُ"[5].

إذن: القِسْطُ أخصُّ من العدل؛ لدلالةِ القِسْط على العدلِ في الحكم، وأمّا لفظُ العدل فأعمُّ من ذلك[6]، وغاية نَصْبِ الميزان في مَشهدِه المَهيب العظيم يوم القيامة تحقيقُ الحكم البيّن الظّاهر في عدله الّذي لا يخفى منه شيء، والقِسطُ يناسبُ هذا المعنى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 73، 17/ 87.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قسط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدل).
(4) الخليل، العين، والفَيّوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 225.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»